

مدى وعي الجاحظ بأجناس المنشور من خلال رسائله

يوسف الصديق

مقدمة :

لعلّ ما توفّق البحث العلمي الحديث إلى الإجماع عليه القول إنّ نصوص البدايات في ثقافة من الثقافات تترك أثرا عميقا في الفكر والنظر يمتدّ إلى زمن متأخّر جدّا من عمر تلك الثقافة حتّى وإن توسّع فكرها ونظرها وتفرّعت في فترات لاحقة .

ومن هذا المنطلق تعتبر " مكتبة " الجاحظ (150 / 159 ؟ - 255 هـ) جزءا أساسيا من نصوص البدايات في الثقافة العربية الإسلامية القديمة وقد خضع أثرها للقانون الذي ذكرنا « فكانت مؤلفاته مصدرا للإنشاء الأدبي الحي ومدرسة في النثر قائمة برأسها نهج على صورتها أشهر أعلام النثر العربي بعده » ⁽¹⁾ . لقد ترك الجاحظ تراثا ضخما ومتنوعا

(1) حمّادي صمود - التفكير البلاغي عند العرب ، أسسه وتطوّره إلى القرن السادس (مشروع قراءة) - منشورات كلية الآداب بمنوبة - ط 2 ، تونس 1994 - ص 144 .

ضاع أكثره وبقي منه ما يكشف عن قامة الرجل وينطق بباعه في حقول المعرفة القديمة كلّها تقريبا .

وكان الأستاذ حمادي صمود في أطروحته : " التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس "، قد لفت النظر إلى كون الدارسين عموما انصرفوا إلى العناية بمدرسة الجاحظ في النثر من حيث خصائصها الفنية وأسرار بلاغتها « أكثر من الاهتمام بنظريته في الأدب وأحكامه في النقد »⁽²⁾ لذلك تأكدت الحاجة إلى تدبر نصوص الجاحظ على نحو مغاير للمألوف كأن يتجه النظر مثلا إلى البحث عن وعي الجاحظ بالأجناس الأدبية الثرية، وبعبارة أدق البحث عن مدى وعيه بأنواع المنثور في المنجزات الأدبية الثرية في عصره وفي الفترات السابقة له، طلبا لهذا الوعي وجودا وحدودا.

ومعلوم أنّ " البيان والتبيين " من بواكير التصانيف في الأدب ونظريته، وقد غلبت عليه النقول (المرويات المتنوعة) بما وافق مفهوم " الأدب " قديما، واعتمد الجاحظ في وضعه مبدأ الجمع. ولا شك أنّ الجاحظ " الوراق " استغل النصوص التي وقعت عنده جلّها أو بعضها في تأييد هذه المعلّمة .

ولكن " البيان والتبيين " نظرا إلى تقدّمه زمنيا يبدو كتابا مراوغا إذا ما تساءلنا عند قراءته عن الوعي بالأجناس الأدبية لدى كاتبه، إذ يكتفي فيه الجاحظ أحيانا كثيرة بالإشارات واللمحات البسيطة التي على القارئ أن يفتن إليها فيميّزها كلّما وجد لها سببا يصلّها بالوعي الأجناسي، وهذا عمل - لا شك - دقيق يتطلب أناة القارئ وحذره .

(2) المرجع السابق - ص 144 .

أورد الجاحظ في " البيان والتبيين " الكثير ممّا يتّصل بالخطب وما أورده ⁽³⁾ يظلّ مهمّاً لا سبيل إلى الاستهانة بقيمته لأنّ الرّجل كان قد حدّد بعدُ منذ النّصف الأوّل من القرن الثالث الهجري أقسام الخطبة وشروطها وأنواعها ومقاماتها وغير ذلك ممّا حفل به الكتاب، وفي تضاعيف كل ذلك نجد تنظيراً يكاد يكون شديد الوضوح والشّمول حتّى ليعسر حقّاً أن نعثر على ما يمكن أن يتجاوزه لدى اللاحقين من أدباء ونقاد ممّن تناولوا فنّ الخطابة العربيّة والأمر نفسه تقريباً نجده في حديثه عن القصّ (الحكي) ووظيفته وعن غايات القصّاص وشخصياتهم ومميّزاتها ⁽⁴⁾.

ويمكن اعتبار خطاب الجاحظ عن النّادرة متفوّقاً على ما ساقه في سائر كلامه عن غيرها من الأنواع، كما نجد في حديثه عن تميّزات الفصاحة في النّادرة ⁽⁵⁾ بحسب روايتها من أقحاح العرب أو المولّدين، وفي ارتباطها بالمناسبة والسياق، وفي اختلافها عن المثل، إشارات قد تكمن فيها محدّدات الجنس.

كما يبدو الجاحظ واعياً بالفروق المحدّدة بين أنواع الرّسائل وربّما وجدنا في " كتاب الحيوان " شيئاً من هذا أهمّ ممّا نجد في " البيان والتبيين ".

ولننّ مثل " البيان والتبيين " رغم كلّ ذلك غياب الوعي التّصنيفي في زمن لمّ شتات الثّقافة العربيّة هو زمن التدوين، فإنّ " كتاب الحيوان "

(3) الجاحظ - البيان والتبيين - تحقيق وشرح عبد السلام محمّد هارون - دار الجيل ودار الفكر للطباعة والنّشر والتّوزيع - بيروت، د.ت.

ونظراً إلى غزارة المادة المتعلّقة بالخطابة يحسن الاهتمام بالفهرس الذي وضعه المحقّق عن " البيان والبلاغة " في الجزء الرابع من الكتاب في هذه الطبعة، وتحديدًا انظر مادة " الخطابة " في الفهرس المذكور IV / 108 و 109 .

(4) المرجع السّابق - I / 93 ثمّ I / 367 وما بعدها .

(5) المرجع السّابق - I / 145 و 146 .

كان كتاب تصنيف وبحث في الأنواع وتبويبها إذ كان الجاحظ فيه مهتمًا بتصنيف الموجودات إلى أجناس وأنواع، وقد عكس الكتاب عقلية مميّزة في التصنيف بما كان رائجًا وقتئذ في العلم والوعي والأذهان، علما أنّ التصنيف لم يعن بإبراز التمايزات فقط بل كذلك رسم العلاقات والتألفات، والتصنيف يقوم في كل الأحوال على العلم والتمييز.

بنى الجاحظ في " كتاب الحيوان " نظره عامة على عدد من الثنائيات من قبيل : (الشعر/النثر) و (الهزل/الجد) و (ما يحتاج إليه/ما لا يحتاج إليه). ونجد في الكتاب مصطلحات عن أنواع أدبية عديدة قد استقرت بعد، وجدنا أهمها من قبل في " البيان والتبيين " مثل " النادرة " و " الخطبة " و " الرسالة "، ولم تكن هذه النوادر والخطب والرسائل نصوصا مدونة فحسب بل كانت مفاهيم محدّدة أيضا.

وتبقى مقدّمة " كتاب الحيوان " (6) النصّ الذي عبّر بشكل متكامل عن وعي الجاحظ وعيا عميقا بانتقال الثقافة العربيّة آنذ من الشفوي إلى المكتوب أو من طقس الشعر إلى طقس المنثور. لذلك ربّما كان من الصّعب أن نفهم النثر العربي القديم بعيدا عن العناية بهذه اللحظة الانتقالية الجاسمة مثلما ارتسمت في وعي الجاحظ.

ومن هنا يمكن البحث في نصوص الجاحظ ومؤلفاته " النظرية " ونعني بالأساس " البيان والتبيين " وبعضا من " كتاب الحيوان " عن الخصائص التي ضبطها وقالها تصرّحا أو تلميحا في الشكل والمعنى أو المقام أو حتّى ما تعلّق بخصائص التلفّظ بما يتّصل بالأنواع الأدبيّة بغية

(6) الجاحظ - كتاب الحيوان - تحقيق وشرح عبد السلام محمّد هارون - دار الجليل ودار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت 1988 .

تقع المقدّمة في ما يناهز المائة صفحة من الجزء الأوّل. ويهمننا في ما أوردنا اعلام الفقر الواقعة بين ص 33 و ص 102 من الجزء الأوّل.

التقاط ما يحدّد منها النوع الأدبي ويميّزه. ولكن ينبغي في كل ذلك الوعي بالمسافة المعرفية الهائلة التي تفصل بين تلك المتون القديمة وبين الباحث المعاصر، فهذه المتون قد تبدو للوهلة الأولى هزيلة فقيرة بينما هي غير ذلك حقاً، وينبغي الاستعداد أيضاً بتوقع حضور الوعي بالأجناس في هذه النصوص وتوقع غيابه من جهة أخرى.

ونحن عند البحث في وعي الجاحظ بالأجناس الأدبية الثرية كشفاً عن مدى هذا الوعي وجوداً وحدوداً إنّما ننصرف إلى اعتبار لفظ " المنشور " يفيد بمعنىّ الإحاطة والجمع في كلّ ما كانت سبيل كتابته نثراً، فاللفظ هنا صيغة أجناسيّة ⁽⁷⁾ تُجنّبنا مزالِق اعتماد لفظ " النشر " الذي استُعمل عادةً مقابلًا بسيطاً وعماماً للشعر. والذي يهمنّا هو أن ندرس خطاب الجاحظ الناقد الدائر على الأجناس، ذلك الذي وصف به هذه الأجناس والأنواع الأدبية من المنشور على اختلافها. ويمكن أن يتم ذلك على مدار جملة من الأسئلة المتوالدة المتضافرة من قبيل التساؤل عن وجود وعي بهذه الأجناس وعن وجود تصنيفٍ مّا لها فهل وصف الجاحظ الأنواع بما يميّز بعضها عن بعض ؟ وهل يوجد ما يدلّ على وعي لديه بالفرق بينها ؟ وهل تجاوز الجاحظ الوعي بها إلى ذكر خصائص يعرفها بها ؟ ثم هل ذكر هذه الأنواع منفردة أم جعلها مصنّفة ؟ وإذا وُجدَ التصنيف فهل جاء شكلياً أم معنوياً ؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التي تفضي بنا إلى البحث عن صورة هذا المنشور في النقد الجاحظي من جهة وعي النقد بأنواع المنشور وخصائص الأنواع، هكذا يتّجه البحث اتّجاهها أجناسياً نحو الوقوف على مدى وعي الثقافة العربية القديمة - من خلال نموذج الجاحظ - بمنجزاتها الأدبية.

(7) ترادف في الفرنسية عبارة Terme générique .

ذلك أنّ البحث الأجناسي الأنواعي هو عادة الفضاء الذي ترتّب فيه الثقافة ممتلكاتها، فتجعل بعضها في المركز والصدارة وتجعل بعضها الآخر في الهامش. وليس الأمر تنصيذا مجردا بل ترتيبا وفق سلّم ومدارج، فقد ترشّح ثقافة ما في لحظة محدّدة أشياء في حين تقصي أشياء أخرى. وشأن الثقافة في مثل هذا العمل أنّا تعقل ممتلكاتها تقييدا وإدراكا، لذلك نجد النصّ يعي ذاته بعد أن كان يجهل القانون الذي يحمله في أحشائه زمنا. والعمل الأجناسي لا يعدو أن يكون إخراج هذا القانون الخفيّ من دائرة اللاوعي إلى دائرة الوعي فيصير القانون وقد تحوّل من الكمون والإضمار إلى الظهور والإفصاح سلطةً ونظامًا⁽⁸⁾.

لقد رأينا لمقالنا هذا أن ننكبّ على مجموع رسائل الجاحظ تنقيا عمّا يمكن أن يكون ذا صلة بالمشغل الأجناسي الذي أسلفنا القول فيه، ذلك أنّ صلة " البيان والتبيين " و " كتاب الحيوان " - بدرجة أقل - بالمباحث الأدبية ونظرية الأدب عموما هي في الظاهر أوثق ومادتها أغزر والبحث فيها أيسر وأكثر إغراء، أمّا رسائل الجاحظ التي وضعها صاحبها في مواضيع مختلفة وأبواب متنوعة ولغايات متباينة فتبدو بغير ما يمكن أن يصلها في الظاهر بمبحث أجناس الأدب والوعي بأنواع المنشور منه والخوض فيه والتّظير له. لكنّ سمات الأدب الجاحظي المعروفة تفرض علينا التّصدّي لقراءة متون الرسائل طمعا في العثور على ما قد يعزّز أو يرفد ما نجده في تصانيف الجاحظ الأشهر والأهمّ أي " البيان والتبيين " و " كتاب الحيوان ".

I - في رسائل الجاحظ عامّة :

اخترنا في عملنا هذا أن نعتمد من بين الطباعات المختلفة التي صدرت بها رسائل الجاحظ ، نشرة عبد السلام محمّد

(8) النظام هنا في معنى Organisation وفي معنى Système أيضا ...

هارون ⁽⁹⁾ ويعود اختيارنا نشرة هارون إلى اعتبارها الأشمل نصوصا والأوفى تحقيقا والأحدث زمنا وقد أصدر عبد السلام محمد هارون نشرته هذه في مصر سنة 1964. واعتمدنا نحن في عملنا طبعة دار الجيل بيروت سنة 1991 - الطبعة الأولى التي خرج الكتاب فيها في مجلدين بأربعة أجزاء تضمّت في الجملة خمسة وأربعين نصّا للجاحظ بعضها تامّ وبعضها الآخر منقوص أو مجتزأ بحسب ما نوّه المحقّق، وقد لاحظنا ترّدّد العناوين بين لفظي " كتاب " و " رسالة " أو بين " من كتاب... " و " من رسالة ... " (كذا) للجاحظ .

فمن النصوص التي حملت في عناوينها لفظ " رسالة " نذكر " مناقب الترك " ⁽¹⁰⁾، و " المعاش والمعاد " ⁽¹¹⁾ و " الجدّ والهزل " ⁽¹²⁾. ومن النصوص التي حملت في عناوينها لفظ " كتاب " نذكر " كتمان السرّ وحفظ اللسان " ⁽¹³⁾ و " فخر السودان على البيضان " ⁽¹⁴⁾ وليس ما نذكر إلّا مثالا لا حصرا .

ونلاحظ أنّ المحقّق اعتبر النصوص جميعا تقريبا رسائل، حرص على بيان ترتيبها في ضوء المجموعات التي اعتمدها عند الجمع والتحقيق.

(9) قام عبد السلام محمد هارون بتحقيق الرسائل وشرحها بعد أن نظر في سبع مجموعات من رسائل الجاحظ سابقة لعمله كان قد جمعها ونشرها آخرون قبله مثل مجموعة باول كروس وطه الحاجري التي صدرت في مصر سنة 1943 عن لجنة التأليف والترجمة والنشر، ومجموعة حسن السندوبي طبعة الرحمانية سنة 1933، ومجموعة ريشر (RESCHER) التي صدرت في شتوتغارت بألمانيا سنة 1931 وغيرها.

(10) رسائل الجاحظ - تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون - دار الجيل، بيروت، ط 1، 1991 - المجلد الثاني - 161/III .

(11) المصدر السابق - المجلد الأوّل - 87 / I .

(12) المصدر السابق - المجلد الأوّل - 227 / I .

(13) المصدر السابق - المجلد الأوّل - 135 / I .

(14) المصدر السابق - المجلد الأوّل - 173 / I .

وقد تفاوت هذه النصوص طولا وحجما فوجدنا منها ما يناهز عدد الصفحات فيها اثنتين وستين ومائة صفحة مثل " كتاب البغال " (15) أو ثمانين صفحة مثل " مناقب الترك " (16) وكذلك ما لا يتعدى صفحتين مثل " البلاغة والإيجاز " (17) أو خمسا مثل " طبقات المغنين " (18).

وهذا كله يدفع الدارس إلى التساؤل عن بعض محدّدات التّأليف والتصنيف والنّظر في حدود الوعي القائم عند الجاحظ بهذه المحدّدات.

ولم يظهر في هذه النصوص : " الرسائل/الكتب " دوما الطّرف المخاطب أو القارئ الذي إليه ولأجله ألّف الجاحظ وكتب فبعض هذه النصوص يكشف هويّة المرسل إليه والمخاطب المقصود، سواء بإشارات في متن النصّ، أو بما أوضحه المحقّق في شروحه ومقدّماته. ومن ذلك مثلا أنّ رسالة " مناقب التّرك " (19) كتبها الجاحظ إلى " الفتح بن خاقان " ورسالة في " الجدّ والهزل " (20) كتبها إلى محمّد بن عبد الملك الزيات "، وأخرى " في نفى التشبيه " (21) إلى " أبي الوليد محمّد بن أحمد بن أبي دؤاد " وغيرها كثير .

بينما نجد إلى جانب ذلك نصوصا فيها أسلوب المخاطبة يصدر به الجاحظ تأليفه من غير إيضاح أو كشف عن هوية المخاطب وهو ما نجده مثلا في " فخر السّودان على

(15) المصدر السابق - المجلد الأوّل - II / من 215 إلى 378.

(16) المصدر السابق - المجلد الأوّل - I / من 6 إلى 86.

(17) المصدر السابق - المجلد الثاني - IV / من 151 إلى 152.

(18) المصدر السابق - المجلد الثاني - III / من 131 إلى 136.

(19) المصدر السابق - المجلد الأوّل I / من 5 إلى 86 والمجلد الثاني - III / من 161 إلى 220.

(20) المصدر السابق - المجلد الأوّل - I / من 232 إلى 278 والمجلد الثاني IV / من 83 إلى 91.

(21) المصدر السابق - المجلد الأوّل - I / من 283 إلى 308.

البيضان» (22) وفي «كتاب الحجاب» (23) كما نجد فضلا عن ذلك نصوصا يبدوها الجاحظ بأسلوب خال من الإشارة إلى مخاطب البتة ومثال ذلك «كتاب مفاخرة الجواري والغلمان» (24).

ولعله من المفيد الإشارة إلى أنّ نصوص الجاحظ هذه وإن أدرجناها في ما يُعرف بالأدب الإنشائي الإبداعي الذي يصرف فيه صاحبه أشياء من بنات أفكاره وأشتاتا من خواطره وتَبَدَّا من استخلاصاته فإن بعضها لم يتخلّص من الحاجة إلى المرويات والمنقولات إذ يكتفي الجاحظ في بعض الأحيان بتدوين ما حفظ عن الرواة وجمعه معترفا بذلك ومشيرا إليه وذاكرا مصادره متبرّنا بما قد يلتبس بهذا المرويّ من نُحول وزيادات، وذلك ما نجده مثلا في «كتاب القيان» (25) حيث أورد الجاحظ في أوله إسنادا يذكر فيه أعلاما رواة كثيرا، ثم يذكر في آخر الرسالة/الكتاب أنّ هذه الرسالة التي كتبناها من الرواة منسوبة إلى من سميناهم في صدرها» (26).

وهذا يقودنا إلى القول إنّ بعض رسائل الجاحظ قد حفل بالمرويات الشفوية ضمن متونها على سبيل الاستشهاد أو التمثيل أو الدّعم فوجدنا الجاحظ يردّد عبارات من قبيل «أخبرني ...» و«حدّثني ...» و«روى...» و«قال... (فلان)» ومثال ذلك متن «كتاب الحجاب» (27).

(22) المصدر السابق - المجلد الأول - I / من 177 إلى 225.

(23) المصدر السابق - المجلد الأول - II / من 29 إلى 85.

(24) المصدر السابق - المجلد الأول - II / من 91 إلى 137.

(25) المصدر السابق - المجلد الأول II / من 144 إلى 181.

(26) رسائل الجاحظ - تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون - دار الجيل بيروت - ط 1.

1991 - المجلد الأول - II / 181.

(27) المصدر السابق - المجلد الأول - II / من 29 إلى 85.

وهو ما يدفع الدراس إلى تدبّر علاقة الرواية الشفوية والمأثور من النصوص شعرا ونوادير وأمثالا وحكما وأخبارا بالمكتوب تأليفا وتصنيفا، وتسلّله إلى بلاغة مغايرة ونمط من الأدب مختلف في فترة تاريخية كان فيها مقام الترسل وما ينتجه من نصوص مكتوبة لا يحول بعدد دون تأثير الرواية الشفوية، لكأنّ بعض نصوص الرسائل تخضع للقانون ذاته الذي خضعت له "أجناس" النشر في عصر الصّراع بين المشافهة والتدوين أو « بين الذاكرة والصّحيفة ⁽²⁸⁾ » .

ومّا ينبغي أن نشير إليه أيضا أننا نجد في بعض رسائل الجاحظ فِقراً وصياغات ومعانٍ تعاود الظهور بشكل جلي أو ضمني من رسالة إلى أخرى، كما نجد شيئا مما ورد في "كتاب الحيوان" - الجزء الأول - طبعة هارون، بلفظه ومعناه أو بمعناه فقط، فضلا عن أنّ بعض عناوين الرسائل يتكرر أو يتشابه ضمن المجموعة التي أصدرها المحقّق .

لقد توزعت رسائل الجاحظ أغراضاً مختلفة، ومواضيع وغايات، متنوّعة ومقاصد ذهب إليها صاحبها، فكانت هذه الرسائل في مجموعها موسوعة أدبية رائعة بمعنى "الأدب" "الجاحظي" والقديم عامة .

وكانت هذه الرسائل في الكلام والعقائد وأصول الدين والردّ على أصحاب المذاهب والميلل المخالفة مثل "حجج النبوة" ⁽²⁹⁾ و "خلق

(28) حمادي صمود - في نظرية الأدب عند العرب - منشورات النادي الثقافي بجدة - 1990 - ص ص 116 - 120 .

وانظر صالح بن رمضان - الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النشر الفني - اطروحة دكتورا دولة، مرقونة، كلية الاداب بمنوبة. 1996 - انظر الفصل الأول من الباب الأول.

(29) رسائل الجاحظ - المجلد الثاني - III / من 223 إلى 281 .

القرآن " (30) و " استحقاق الإمامة " (31) وفي الحجاج العقليّ والجدل والتعليم والعرفان عامة، في مواضيع شتى تتصل بالإنسان وأخلاقه وفكره وطباعه وتتصل بأجناس البشر وصناعاتهم وحرفهم وفنونهم ومهاراتهم كما في " مناقب الترك " (32) و " فخر السودان على البيضان " (33) و " مفاخرة الجواري والغلمان " (34) وغيرها . وبعضها نصوص في الاعتذار والاسترضاء أو المدح والهجاء والذم كما في " الجدل والهزل " (35) و " التربيع والتدوير " (36) و " ذمّ أخلاق الكتّاب " (37) وأخرى نصوص أدبية عامة مثل " البغال " (38) و " الحجاب " .

١١ - في ما قد يكون ذا صلة بموضوع البحث من رسائل الجاحظ

لا شك أن موضوع الدراسة يدفعنا إلى الانتباه والتمييز بين النصوص التي كتبها الجاحظ والمندرجة بذاتها ضمن جنس من أجناس الأدب مثل الرسائل ذاتها من ناحية واللغة التي يمكن أن تكون هذه النصوص قد تضمنتها إذ تنقد أو تصف أو تحدد مياسم جنس ما من الأدب وممارسة ولذلك حرصنا في هذا العمل على التقاط الإشارات التي يمكن أن تُصنّف

-
- (30) المصدر السابق - المجلد الثاني - III / من 285 إلى 300 .
(31) المصدر السابق - المجلد الثاني IV / من 207 إلى 215 .
(32) المصدر السابق - المجلد الأول - I / من 5 إلى 86 .
(33) المصدر السابق - المجلد الأول - I / من 177 إلى 225 .
(34) المصدر السابق - المجلد الأول - II / من 91 إلى 137 .
(35) المصدر السابق - المجلد الأول - I / من 231 إلى 278 .
(36) المصدر السابق - المجلد الثاني III / من 55 إلى 109 .
(37) المصدر السابق - المجلد الأول - II / من 187 إلى 209 .
(38) المصدر السابق - المجلد الأول - II / من 216 إلى 378 .

ضمن اللغة الواصفة، اللغة المتعالية من الدرجة الثانية أو " الميتالغة " إن جاز التعبير .

وفي سبيل هذا القصد اكتشفنا أن الغنيمة زهيدة في كمّها، ذلك أنّ عددا من الرسائل - يفوق نصفَ مجموعِها - لم يتضمنّ - فيما اجتهدنا - شيئا عن الأجناس الأدبية عامة، وعن المنثور خاصة. وقد انصرف فيه الجاحظ إلى شواغله المخصوصة، وفي المقابل تضمّنت إحدى وعشرون رسالة أو نصّا قليلا أو كثيرا من الإشارات التي يمكن بشيء من الاعتساف أن ندرجها ضمن اهتمامنا .

وفي ما يلي من هذه الورقات جرد بالنصوص / الشواهد التي استخرجناها من هذه الرسائل ⁽³⁹⁾ وهي شواهد مرقمة ترقّما إجرائيا، يُيسّر لنا النظر في الجدول البياني الذي يوضح مصادر الشواهد وإحالاتها وأهمّ الفوائد التي تضمّنتها الشواهد المنتقاة .

ولعل للناظر أن يرى ما يخالف هذا الاختيار في حدّ الشواهد، فيجد أنّ بعضها يحسّن أن يُجمع في نص واحد بما يختزل عددها أو يجزئ بعضها آخر بما يزيد في عددها. وذلك ممكن طبعا إذ التقسيم كله وكيفما كان لن يخلو من تعسف وهو أمر تفرضه بنية الشاهد ذاتها ومضامينه المتجاوزة المتداخلة .

ولقد أحصينا ثلاثة وستين شاهدا ⁽⁴⁰⁾ يمكن أن يرتفع عددها بزيادة التقسيم كما يمكن أن يقلّ بالحرص على الدمج والجمع، وتوزعت الشواهد على إحدى وعشرين رسالة كما أسلفنا .

(39) انظر ملحق هذا العمل وقد خصصناه لهذه النصوص الشواهد التي استخرجناها .

(40) تبدأ النصوص الشواهد في الملحق بالشاهد رقم 1 من " مناقب الترك " ، وتنتهي بالشاهد رقم 63، من " كتاب الجوابات واستحقاق الإمامة " .

جدول النصوص الشواهد : مصادرها ، مواضعها ، فوائدها

الشاهد	المصدر	الجزء / الصفحات	التمهيد
1	مناقب الترك	22 ، 21 / 1	<ul style="list-style-type: none"> - يذكر الجاحظ أنماطاً قولية مختلفة بما يوحي بنوع من التصنيف ضمن مقامات تبدو خطافية مندرجة في بلاغة التقوي عامة . - يذكر أيضاً الشعر والنثر من قبيل قوله " المديح الكافي " و " الشعر الموزون " و " الكلام المنثور " و " القول المنثور " و " الشعر الملقى " و " التفاسر والتنافس " و " سجع الكهّان " و " المنثور المرسل " و " الموزون المعدل " .
2	مناقب الترك	86 / 1	<ul style="list-style-type: none"> - يذكر الجاحظ بعض أنواع " الكتب " معتمدا مضامينها . - يذكر كذلك بعض اختيارات التأليف وشروطه .
3	المعاش والمعاد	96 ، 95 / 1	<ul style="list-style-type: none"> - يذكر الجاحظ الفائدة الحاصلة من النظر في الكتب ، ويذكر بعض خصائص كتابه هذا وهو " من الأدب " وأنه جعله بما يتر به المرسل إليه .
4	الحج والهرج	247 ، 246 / 1	<ul style="list-style-type: none"> - يذكر الجاحظ حفظ الكتب وتخير الرواد المستعملة للتدوين والكتابة عامة من جلود وكاغذ ، وفضل بعض هذه الرواد على بعض . - ويذكر بعض ما يتصل بحراسم القراءة والكتابة .

المصادر	الجزء / الصفحات	المصادر	الناشده
		أبو العلاء - " عبد الحميد بن يحيى " - ابن المقفع .	
	223 ، 222 / II	يشير الجاحظ إلى موارد بعض الأمثال المتصلة ببعض أحاديث الرسول .	27
	224 ، 223 / II	اصطناع التوارد والملح من أحاديث موضوعه على بعض السلف .	28
	232 / II	- فضل التأليف في العلم والأدب وضرورته . - الحاجة إلى الانخراط في سنن المكتوب تحقيقاً لتراكم المعرفة .	29
	28 ، 27 / III	- فضل " الكتاب / المكتوب (التدوين والتأليف) . - أهمية المكتوب في الشأن المعرفي وفي مجال الحكم والسياسة .	30
	30 ، 29 / III	مناهج التعلم ، النظر والسمع — > التوسيع والجمع .	31
	34 / III	شيء من الفرز والتصنيف في " المنطق والنشور " : كلام الاحتجاج والعقائد والنساقلات من المسائل والجوابات في العلامات . ثم ذكر " القصاد والأرجاز " ثم ذكر " المزودج والأسجاع " .	32
	39 / III	معايير بلاغية عامة تتصل بالمكتوب في تناسب لفظه ومعناه وفق مبدأ الملاءمة .	33

الموضوع	الجزء / الصفحات	المصدر	الشاهد
بعض شروط " الكتاب " بنية وطريقة وأسلوباً ومضموناً .	153 ، 152 / III	في النساء	42
بعض المحددات النبوية في مقام الترسّل والتأليف الأدبي .	153 / III	في النساء	43
بعض المحددات النبوية في مقام الترسّل والتأليف الأدبي .	153 / III	في النساء	44
بعض شروط " الكتاب " والتصنيف في الأدب وما يحسن أن يكون فيه .	153 / III	في النساء	45
الكلام المنثور : مزودج مسجوع .	159 / III	في النساء	46
يذكر الجاحظ عرضاً إنماداً من القول وأجناسه بما يكون شفوياً أو مكتوباً مثل " النظم " و " البحث والنثر " و " القصيد والرجز " و " الغمس والأسجاع " و " المزودج والنثر " و " الخطب والرسائل " - > ثنائيات تعترق الشفوي والمكتوب والشعر والنثر ثم ما يكون ضمن الشعر وما يكون ضمن النثر .	31 / IV	مقالة العشمانية	47
حمد الاختصار وذم الإكثار .	151 / IV	في البلاغة والإيجاز	48
مدح الصمت وذم التثرة والتشقيق .	151 / IV	في البلاغة والإيجاز	49
بعض معايير الفصاحة وشروط البلاغة .	151 / IV	في البلاغة والإيجاز	50
حمد الإيجاز وذم الإكثار .	152 / IV	في البلاغة والإيجاز	51

الفهرس	الجزء / الصفحات	المصدر	الشاهد
فقر وردت بلفظها أو في معناها في " كتاب الحيوان " (انظر نشرة هارون I / 84 وما بعدها) . بيان فضل المكتوب على الملفوظ الشفوي وبيان علة الفضل ووجوهه . بلاغة الغياب . تراكم المعرفة . ضرورة الانخراط في سنن الكتابة .	296 / ١٧	في الجوابات واستحقاق الإمامة	60
	297 ، 296 / ١٧	في الجوابات واستحقاق الإمامة	61
	297 / ١٧	في الجوابات واستحقاق الإمامة	62
	298 / ١٧	في الجوابات واستحقاق الإمامة	63

III - قراءة في وعي الجاحظ

يمكن أن نبوب نصوص الشواهد في ضوء مضامينها وما ورد فيها من " فوائد " تصريحاً وتلميحاً بحسب التصنيف التالي :

(1) في أنماط وأجناس من القول :

الشواهد : 1 - 13 - 14 - 27 - 28 - 32 - 40 - 46 - 47 .

الجملة : تسعة شواهد .

(2) في معايير الكلام وبلاغته عامة (الفصاحة والبيان / اللفظ والمعنى / الجد والهزل / الإيجاز والإكثار / المقال والمقام / النطق والصمت) :

الشواهد : 8 - 9 - 10 - 15 - 16 - 17 - 19 - 33 - 35 -

37 - 38 - 39 - 40 - 41 - 48 - 49 - 50 -

51 - 52 - 53 - 54 - 57 - 58 .

الجملة : ثلاثة وعشرون شاهداً .

(3) في مقومات التأليف وشروطه وخصائصه وفي الكتب وأغراضها :

الشواهد : 2 - 3 - 12 - 13 - 14 - 20 - 36 - 37 - 42 -

43 - 44 - 45 - 54 - 55 - 56 - 59 .

الجملة : ستة عشر شاهداً .

(4) في فضل " الكتاب " وضرورته وأهميته :

الشواهد : 3 - 11 - 29 - 30 - 55 - 60 - 61 - 62 - 63 -

الجملة : تسعة شواهد .

(5) في مواد الكتابة وآلاتها وما يتصل بها من صناعات ،

الشواهد : 4 - 5 - 6 - 7 - 56 .

الجملة : خمسة شواهد .

(6) في مساوي الكتاب ومجائهم وفي " دنية الكتابة " ،

الشواهد : 22 - 23 - 24 - 25 - 26 .

الجملة : خمسة شواهد .

(7) في الشعر :

الشواهد : 18 - 21 .

الجملة : شاهدان .

(8) في مناهج التعلم

الشواهد : 31

الجملة : شاهد واحد .

نلاحظ من خلال هذا التبويب أولاً أنّ عدداً من الشواهد يمكن أن يُدرج في أكثر من باب واحد إذ أفاد في مضمونه أموراً مختلفة تجاوزت على تنوعها واختلافها في سياق واحد . ومثال ذلك نص الشاهدين رقم 13 و 14 إذ أدرجناهما في البابين الأول والثاني معاً من هذا التصنيف (" أنماط وأجناس من القول " ثم " شروط التأليف ومقوماته ") . كذلك مثال نص الشاهد رقم 55 الذي أفاد مضمونه ما يتصل بمقومات التأليف وشروطه (الباب الثالث) وما يتعلق بفضل " الكتاب " (الباب الرابع) .

ونلاحظ أيضا غلبة الشواهد المدرجة ضمن الباب الثاني في معايير الكلام وبلاغته عامة إذ كان عددها ثلاثة وعشرين نصا، مقارنة بقلة النصوص الشواهد التي تضمنت ذكر الجاحظ أجناس القول وهي تسعة فقط . وهذه النصوص التسعة توازي بعددها الشواهد المتعلقة بفضل " الكتاب " بل هي دونها عددا وأهمية إن أضفنا إلى نصوص فضل " الكتاب " شواهد الباب الخامس مما قاله الجاحظ في مواد الكتابة وآلاتها .

بقي أن النصوص الشواهد المتصلة بمقومات التأليف وشروطه (الباب الثالث) يمكن أن توفر مادة قد تساعد الدارس في تبين ملامح من وعي الجاحظ ببعض محددات الترسل الأدبي حتى وإن بدت باهتة . ولعلّ ضمور المادة المطلوبة لمبحث الوعي بأجناس المنشور عند الجاحظ في رسائله يؤكد ما كان حمادي صمود قد نبّه إليه في خصوص سير المادة الأدبية والبلاغية باتجاه تنازليّ في تأليف الجاحظ من " البيان والتبيين " مرورا بـ " كتاب الحيوان " وانتهاء إلى " الرسائل " ⁽⁴¹⁾ . فهذه المادة في " الرسائل "، على قلتها، ماثلة في ثنايا النصوص وهي إلى التعميم أقرب ونكاد لا نظفر فيها بوعي واضح أو بتحديد صارم لمقومات جنس أدبي معين. لقد غلبت الإشارات المتصلة بالبلاغة عامة وبمعايير الكلام الجيد بصرف النظر عن نمط القول ومقاومه شفويا كان أو كتابيا .

هكذا نكاد لا نعثر في " الرسائل " على مادة نظرية متصلة بالأجناس الأدبية وبأجناس المنشور وأنواعه تحديدا. فما أثبتته الجاحظ في هذا الباب قليل يكاد يكون غائبا تماما مثلما هي الحال في " كتاب

(41) حمادي صمود - التفكير البلاغي عند العرب ، أسسه وتطوره إلى القرن السادس . (مشروع قراءة) - منشورات كلية الآداب بمنوبة - ط 2 - تونس 1994 ، ص ص 145 -

الحيوان " إذ تعلقّت المادة النظرية المصاحبة للنصوص باعتبارات بلاغية ولغوية عامة لا يمكن أن تعتبر ضابطاً لجنس أو نوع من الأدب باستثناء الشعر . ونلاحظ في الرسائل ميل الجاحظ أحياناً كثيرة إلى الانسياق وراء ثنائيات تلازم التعبير عند خوضه فيما يمكن أن يتعلّق بأجناس الكلام أو المنشور منه تحديداً، وذلك بعيداً عن التمييز الاصطلاحي الدقيق . (42)

ولعلّ قانون تراكم النصوص وتعاقبها حكمٌ وعي الجاحظ في محدوديته هذه أكثر من أي عامل آخر. فالجاحظ الذي وجدناه أفاد بالكثير في " البيان والتبيين " مما يتصل بالخطبة والخطيب وفن الخطابة مثلاً - ولعل ذلك كان لوفرة نصوص الخطب وشيوعها في القرنين الهجريين الأول والثاني - نجده لا يسعفنا بقدر كاف من النظر والتمييز والتصنيف والتعديد يوازي ذلك الذي للخطب فيما يتعلّق بأجناس المنشور.

ذلك أن الوعي بالأجناس الأدبية هو القدرة على التفكير المجرد في الظاهرة الأدبية ونصوصها، ورصد المكونات الأساسية التي تبينها، والوقوف على النواميس المتحكّمة فيها. بتعبير آخر، إن الوعي الأجناسي هو القدرة على استخلاص الضوابط وبناء الأنساق. وهذا الوعي يحتاج قيامه عمليات عديدة متضافرة ومنها ما لا يكون الوعي إلا بتوفرها ومن ذلك شرطان هما الكثرة أو التراكم ثم التنوع.

أمّا الكثرة والتراكم ففي النصوص المنجزة مع تعاقبها في الزمن لأنّ التراكم يحتاج بعداً زمنياً. والكثرة ضرورية ليكون الاستقرار وهو الباب المفضي إلى استخلاص وجوه الشبه لأن الكثرة توفر ما كان اللغويون القدماء يسمونه " قياس الشبه " . ولا شك اليوم أنّ الشبه أمر أساسي في بناء الجنس إذ ينهض الجنس على عودة المتشابه في النص .

(42) انظر على سبيل المثال النصوص الشواهد ذات الأرقام : 1 - 32 - 47 .

وأما التنوع فيوفر إمكان المقارنة التي تقوم بوظيفتين هما تثبيت خصائص الجنس الأدبي في ذاتها على ذلك الجنس، ثم تمييز جنس أدبي عن جنس آخر .

وهكذا، لا يقوم الوعي الأجناسي إلا بوجود نصوص كثيرة متنوعة تتيح إمكان الاستقراء والمقارنة، وتمكّن من إدراك وجوه الشبه والانتلاف من جهة والمباينة والاختلاف من جهة أخرى بين النصوص، كما تمكّن من تبين ما يؤسّس للجنس الأدبي بواقع تردّده أو تغييره أو حتى غيابه .

ورغم أنّ الجاحظ ذكر في رسائله بعض ما يدخل ضمن النظري عامة والبلاغي خاصّة، وقد يكون ما ذكره كلّ أو بعضه جوهرياً في مواضعه، فإنّه جاء في فترة لم يتوقّر فيها شرطاً التراكم والتنوع بقدر كاف. فكانّ الجاحظ سكت إذن عمّا لم تتوقّر فيه ومنه نصوص كثيرة لأنّ الاستقراء والمقارنة الضّروريين لبناء القانون وإدراك النوع لم يتّما.

كان الجاحظ في كتابيه " البيان والتبيين " و " كتاب الحيوان " قد اعتمد شواهد كثيرة من الشعر والقرآن والأخبار والخطب والأمثال وغيرها، وألّف بينها جميعاً في سياقات نصّه بكيفية كادت تندثر معها الحواجز وتعفو مقولة الجنس الأدبي ذاتها. وهذا يدفعنا إلى التذكير أنّ البحث في الأنواع وخصائصها يظلّ عملاً نظرياً دقيقاً إذ يُطلّعون على الكيفيات التي تضع بها ثقافة من الثقافات حدوداً بين نصوصها لإدراك ما يجمع بينها وما يفرّق. وكثيراً ما تجد هذه الثقافة نفسها وهي تصنّف نصوصها مضطّرة إلى وضع حدود بين نصوص تعلن هي ذاتها هشاشتها وسهولة زوال تلك الحدود بينها فتمرّ النصوص بذلك من التمايز إلى التداخل.

إنّ الاهتمام بالأجناس والأنواع من قبل ثقافة ما دليل على بلوغ مرحلة تنظيم الإنتاج وحصر كلّ صنف منه في فضاء خاصّ به، مع ضبط إمكانيات التداخل بين صنف وآخر.

والتنظيم عملية سلطوية بالمفهوم الأعمق للفظ سلطة، وهو فكرة لا تبرز عادة إلا في سياق تاريخي وحضاري محدد. فيقوم التنظيم على الحد، حد الأنواع لأننا متى حددنا الظاهرة أدركنا ماهيتها، فتخرج من وجود غامض إلى وجود واضح وبذلك يمكننا السيطرة عليها .

وبعيدا عن هذا الهاجس التنظيمي تابع الجاحظ في رسائله ما عهدناه منه من عناية بالكلام عامة، وبالقول الجيد من غير تحديد لجنسه ونوعه طلبا منه لشروط البيان وبحثا عن مقومات الفصاحة ضمن قوانين تعلو على الأجناس بل تخترقها جميعا وتحكمها ولا تنحصر بحدود أي واحد منها. وربما وجدنا في اهتمام الجاحظ بمقومات التأليف في الأدب والعلم ، وفي حرصه مرّات على بيان الكيفيات التي بها يكون الكتاب جيّدا حسنا معتدلا، ما يوقّر مادة يمكن أن تُدرّس لتبيّن أولى محدّدات " الترسل الأدبي " كما نجمت في وعي الجاحظ في ذلك العهد المبكر .

لقد انصرف الجاحظ خاصة إلى الإلحاح على فضل الكتاب والكتابة والمكتوب إن تدوينا وإن تصنيفا⁽⁴³⁾ بشكل لافت للنظر أحيانا. وذلك على نحو ما نجد في " كتاب الحيوان " . و " الكتاب " في مقدمة " كتاب الحيوان " كان يعني كل ما دخل في نظام الكتابة وبلاغتها بغير تقييد إذ بدا الجاحظ واعيا بضرورة تاريخية ملحة آنذاك، ضرورة أن يدخل العرب المسلمون فضاء الكتابة وعصرها حتى تخرج ثقافتهم من طور الشعر والمشافهة إلى طور النثر والكتابة لتقايس سائر الأمم تلك المقايضة المعرفية التي أثّرت القرن الثالث الهجري⁽⁴⁴⁾ . وبعد ظهور الجيل الأوّل من النادرين في القرن الثاني الهجري، شعر الجاحظ ببداية التحول

(43) انظر النصوص الشواهد ذات الأرقام التالية في الملحق : 3 - 11 - 29 - 30 - 55 -

60 - 61 - 62 - 63 .

(44) حمادي صمود - التفكير البلاغي عند العرب ... - ص ص 138 - 142

من الخطابى إلى الكتابى ومن " ثقافة السمع " إلى " ثقافة البصر " فتأكدت لديه ضرورة المرور من زمن المشافهة إلى زمن جديد هو زمن المكتوب لا بمعنى " التدوين " فحسب بل كذلك بمعنى خلق بلاغة جديدة هي بلاغة " الكتاب " والنثر المختلفة. عن البلاغة السائدة، بلاغة الشعر.

ولئن لم يكن همّ الجاحظ التفكير في المادة الأدبية التي ضبطها ولم يقصد إلى استخلاص سماتها المانزة لها ولم يقف على نتائج تنوعها وتجاوزها، فإنّه وعى بشيء من هذا كله وعيا محدودا وهو أمر طبيعي بالنظر إلى ما أسلفنا القول فيه عن حاجة الوعي الأجناسي التام إلى استقرار التأليف وتراكم المنجزات وكفاية المسافة الزمنية اللازمة للنظر. ولذلك بقي إنجاز الجاحظ حتى في " البيان والتبيين " وهو أقرب تصانيفه إلى الأدب ونظريّته، دون الوعي المنهجي النظري فقد جاء تخطيط الكتاب ذاته صورة للصراع الذي يمكن أن نحمله على أن التقاء مفهوميّن للكتابة عنده هما التدوين والتنظيم .

كان الجاحظ من أوائل المصنّفين في الأدب كتباً وتآليف ومن أوائل المترسّلين. ولم يكن القرن الثالث الهجري أو نصفه الأول تحديداً قد عرف قبله زمنا غزير الإنتاج كتابيّة ورسائل لذلك تردّدت رسائل الجاحظ وراوحت بين كونها ضمن كتب الأدب عامّة وضمن " الرسائل الأدبية " خاصّة. وقد نهضت رسائله بوظيفة إنشائية تصنع الترسل ذاته وبوظيفة تثقيفية معرفية نقدية ضمن نشر وظائفه. وتشيّ بنية هذه الرسائل في ذاتها والإشارات المبثوثة فيها هنا وهناك، بلامح وعي أجناسي جنيني. لكنّ الدارس لا يمكنه في نظرنا أن يجد بها أو فيها ما قد يتجاوز حدود النشأة، نشأة التأليف الأدبي الذي به تتلمّس ولادة الأجناس ذاتها ناهيك بوعياها .

نصوص الشواهد المستخرجة من " رسائل الجاحظ "

1

[...] ثم قلت : وزعم أن القربة تُستحقّ بالأسباب الثابتة وبالأرحام الشابكة [...] وبالشكر النافع والمديح الكافي بالشعر الموزون الذي يبقى بقاء الدهر [...] وبالكلام المنشور والقول المأثور [...] ونحن نرتبطها بالشعر المقفى ونصلها بحفظ الأميين الذين لا يتكلمون على الكتب المدونة [...] ونحن أصحاب التفاخر والتنازع في الشرف والتحاكم إلى كلّ حكم مُقنع وكاهن سجّاع. ولنا التعاير بالمثالب والتفاخر بالمناقب. ونحن أحفظ لأنسابنا وأرعى لحقوقنا وتقييدها أيضا بالمنثور المُرسَل بعد الموزون المُعدّل بلسان أمضى من حدّ السّنان [...] حتّى نذكرهم ما قد درس رسمه وعفا أثره.

(مناقب التّرك - 1 - ص 21، 22)

* * * * *

2

[...] ولو كان هذا الكتاب من كتب المناقضات وكتب المسائل والجوابات وكان كلّ صنف من هذه الأصناف يريد الاستقصاء على صاحبه ويكون غايته إظهار فضل نفسه وإن لم يصل إلى ذلك إلّا بإظهار نقص أخيه ووليّه لكان كتابا كبيرا كثير الورق عظيما ولكان العدد الذين يقضون

لمؤلفه بالعلم والاتساع في المعرفة أكثر وأظهر ولكننا رأينا أنّ القليل الذي يُجمَع خيرٌ من الكثير الذي يُفرّق ونحن نعوذ بالله من هذا المذهب.

(مناقب التّرك 1 - ص 86)

* * * * *

3

[...] ولم أزل أبقاك الله بالموضع الذي قد عرفت من جمع الكتب ودراستها والنّظر فيها ومعلوم أنّ طول دراستها إنّما هو تصفّح عقول العالمين والعلم بأخلاق النّبیین وذوي الحكمة من الماضين والباقيين من جميع الأمم وكتب أهل الملل.

فرايت أن أجمع لك كتابا من الأدب جامعاً لعلم كثير من المعاد والمعاش أصف لك فيه علل الأشياء وأخبرك بأسبابها وما اتّفقت عليه محاسن الأمم وعلمت أنّ ذلك من أعظم ما أبرّك به .

(رسالة المعاش والمعاد أو الأخلاق الحمودة والذمومة 1 - ص ص 96.95)

* * * * *

4

[...] سمعتك [...] وكأنّك تشير عليّ من غير أن تُنصّني وتقول : إنّي لأعجب ممّن ترك دفاتر علمه متفرّقة مبثوثة وكراريس درسه غير مجموعة ولا منظومة [...] وعلى أنّ الدّفتر إذا انقطعت حزامته وانحلّ شداده وتخرّمت ربطه ولم يكن دون وقاية ولا جنة تفرّق ورقه وإذا تفرّق ورقه اشتدّ جمعه وعسر نظمه وامتنع تأليفه وربّما ضاع أكثره.

والدفتان أجمع وضم الجلود إليها أصون والحزم لهما أصلح. وينبغي للأشكال أن تُنظَّم وللأشباه أن تُؤلَّف فإنَّ التَّأليف يزيد الأجزاء الحسنة حُسناً [...] فإذا فعلت ذلك متى وجدتَ بعضها فقد وجدتَ كلّها ومتى رأيتَ أدناها فقد رأيتَ أقصاها فإنَّ نشطتَ لقراءة جميعها مضيتَ فيها [...] وعلى أن ذلك أدلّ على حُبِّكَ للعلم واصطناعك للكتب وعلى حسن السياسة والتقدّم في إحكام الصناعة.

(رسالة في الجد والهزل - 1 - ص ص 246 ، 247)

* * * * *

5

[...] فلمّا أخذتُ بقولك وصرتُ إلى مشورتك [...] وجمعتُ البعض إلى البعض والشّكل إلى الشّكل وتقدّمتُ في استجادة الجلود وفي تمييز الصّناع وفي تخيّر البياعات وغرمتُ المال [...] وجعلتها مصحفاً وأجملتها صنفاً صنفاً [...] رأيتُ أن أنظر فيها وأنا مستلق ولا أنظر فيها وأنا منتصبٌ استظهاراً على تعب البدن [...] ولأنّ ذلك أبقي على نور البصر وأصلح لقوّة الناظر.

(رسالة في الجد والهزل - 1 - ص 248)

* * * * *

6

[...] ومتى ثقل الدّرس تشاقلت النّفس وتقااست الطّبيعة ومتى دام الاستثقالُ أحدثَ الهجرانُ [...] ومع قلة الحركة وبُعد العهد بالتّصرّف

يحدث العيّ ويظهر العجز ويبطئ الخاطر ومع ذهاب البيان يفسد
البرهان وفي فساد البرهان هلاك الدنيا وفساد الدين.

(رسالة في الجد والهزل . 1 - ص 250)

* * * * *

7

[...] وما عليك أن تكون كتبتي كلّها من الورق الصّيني ومن الكاغذ
الخراساني ؟ قل لي : لم زينت النّسخ في الجلود ، ولم حثتني على الأدم
وأنت تعلم أنّ الجلود جافية الحجم ثقيلة الوزن إن أصابها الماء بطلت وإن
كان يوم لثقي استرخت [...] وقلت لي : عليك بها فإنّها أحمل للحكّ
والتّغيير وأبقى على تعاور العارية وعلى تقليب الأيدي [...] وقلت : وعلى
الجلود يُعتمد في حساب الدّواوين وفي الصّكاك والعهود وفي الشّروط
وصور العقارات [...] وزعمت أنّ الأرضة إلى الكاغذ أسرع وأنكرت أن
تكون الفأرة إلى الجلود أسرع.

(رسالة في الجد والهزل . 1 - ص ص 252 - 254)

* * * * *

8

[...] إنّ الكلام إنّما صار أفضل من الصّمت لأن نفع الصّمت لا يكاد
يعدو الصّامت، ونفع الكلام يعمّ القائل والسّامع والغائب والشّاهد والرّاهن
والغابر. [...] ولو كان الصّمت أفضل لكانت الرّسالة صمتا، ولكان عدم
القرآن أفضل من القرآن، وقد فرّق بينهما رسول الله صلى الله عليه وسلّم،

وفصل وميّز وحصل حيث قال : " رحم الله امرأ قال خيرا فغنم أو سكت
فسلم " فجعل حظ السكوت السلامة وجعل حظ القول الجمع بين الغنمة
والسلامة.

(رسالة في الجد والهزل . 1 - ص ص 258 ، 259)

* * * * *

9

[...] الاسم بلا معنى لغو كالظرف الخالي، والأسماء في معنى الأبدان
والمعاني في معنى الأرواح. اللَّفْظ للمعنى بدن، والمعنى للفظ روح. ولو
أعطاه | الله لآدم | الأسماء بلا معان لكان كمن وهب شيئا جامدا لا
حركة له، وشيئا لا حسّ فيه، وشيئا لا منفعة عنده.
ولا يكون اللَّفْظ اسما إلاّ وهو مضمّن بمعنى وقد يكون المعنى ولا
اسم له، ولا يكون اسم إلاّ وله معنى.

(رسالة في الجد والهزل . 1 - ص ص 262)

* * * * *

10

[...] الأسماء التي تدور بين الناس إنّما وُضِعَتْ علامات لخصائص
الحالات لا لنتائج التركيبات. وكذلك خاص الخاص لا اسم له إلاّ أن تُجعل
الإشارة المقرونة باللفظ اسما.

(رسالة في الجد والهزل . 1 - ص ص 262 ، 263)

11

[...] على أن قراءة الكتب أبلغ في إرشادهم [الناس] من تلاقيهم إذ كان مع التلاقي يكثر التّظالم وتُفْرِط النّصرة وتشتدّ الحميّة. وعند المواجهة يُفْرِط حبّ الغلبة وشهوة المباهاة والرياسة مع الاستحياء من الرّجوع والأنفة من الخضوع. وعن جميع ذلك تحدث الضّغائن ويظهر التّباين. وإذا كانت القلوب على هذه الصّفة وهذه الحليّة امتنعت من المعرفة وعميت عن الدّلالة.

وليست في الكتب علّة تمنع من درك البغيّة وإصابة الحجّة لأنّ المتّوحد بقراءتها والمتفرّد بفهم معانيها لا يباهي نفسه ولا يغالب عقله. والكتاب قد يفضّل صاحبه ويرجح على واضعه بأمر منها أنّه يُوجد مع كلّ زمان على تفاوت الأعصار وبُعد ما بين الأمصار. وذلك أمرٌ يستحيل في واضع الكتاب ، ويفنى المُعقّب ويبقى أثره. ولولا ما رَسَمَت لنا الأوائل في كتبها وخلّدت من عجيب حكّمها ودوّنت من أنواع سيرها حتّى شاهدنا بها ما غاب عنا وفتحنا بها المستغلق علينا، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم وأدركنا ما لم ندرّكه إلّا بهم، لقد خَسَّ حظّنا في الحكمة وانقطع سببنا من المعرفة وقصّرت الهمة وضعفت النّيّة فاعتقم الرّأي وماتت الخواطر ونبا العقل.

وأكثر من كتبهم نفعا وأحسن ما تكلموا به مَوْعَا كُتِبَ الله التي فيها الهدى والرّحمة [...]. فينبغي أن يكون سبيلنا فيمن بعدنا كسبيل مَنْ قبلنا فينا على أنّا قد وجدنا من العبرة أكثر ممّا وجدوا كما أنّ مَنْ بعدنا يجد من العبرة أكثر ممّا وجدنا.

(من رسالة إلى أبي عبد الله أحمد بن أبي دؤاد، يخبره فيها بكتاب الفُتيا I. ص 315. 317)

* * * * *

12

[...] وإنما نُبَلِّت هذه الكتب |" فصل ما بين العداوة والحسد " وكتاب " فضل الوعد " وكتاب " أخلاق الوزراء |" وحسنت وبرعت وبذت غيرها لمُشَاكَلَتِهَا شرف الأشراف بما فيها من الأخبار الأنيفة الغريبة والآثار الحسنة اللطيفة والأحاديث الباعثة على الأخلاق المحمودة والمكارم الباقية الماثورة مع ما تضمّنته من سِير الملوك والخلفاء ووزرائهم وأتباعهم وما جرت عليه أحوالهم.

(كتاب فصل ما بين العداوة والحسد - 1 - ص 337)

* * * * *

13

[...] وقد عرفتُ حقيقة ما قال يحيى بن خالد بالتَّجربة والابتلاء وإنّي ربّما ألَفْتُ الكتاب المُحَكَّم المُتَقَنّ في الدين والفقه والرسائل والسّيرة والخطب والخراج والأحكام وسائر فنون الحكمة وأنسبّه إلى نفسي فيتواطأ على الطّعن فيه جماعة من أهل العلم بالحسد المركّب فيهم.

(كتاب فصل ما بين العداوة والحسد - 1 - ص 350)

* * * * *

14

[...] وقد جمعتُ في كتابي هذا ما جاء في الحجاب من خبر
وشعر ومعاتبة وعذر وتصريح وتعريض وفيه ما كفى.

(كتاب الحجاب - II - ص 30)

* * * * *

15

[...] إنّ لكلّ نوع من العلم أهلاً يقصدونه ويؤثرونه، وأصناف العلم
لا تُحصى، منها الجَزَل ومنها السَّخِيف. وإذا كان موضع الحديث على أنّه
مُضْحِك ومُثْلٍ وداخل في باب حدّ المزح فأُبْدِلت السخافة بالجزالة انقلب
عن جهته وصار الحديث الذي وُضع على أنّه يسّر النفوس يكرّبها ويغمّها.

(كتاب مفاخرة الجوّاري والغلمان - II - ص 91)

* * * * *

16

[...] ومن كان صاحبَ علمٍ ممرّناً موقَّحاً، إلف تفكير وتنقيب ودراسة
وحلف تبين، وكان ذلك عادة له، لم يَضِرْهُ النَّظَر في كلّ فنٍّ من الجَدِّ
والهزل ليخرج بذلك من شكل إلى شكل.

(كتاب مفاخرة الجوّاري والغلمان - II - ص 91)

* * * * *

17

[...] وبعض من يظهر النسك والتقشف إذا ذكر الحر والأير والنيك
تقرّز وانقبض. وأكثر من تجده كذلك فإنما هو رجل ليس معه من
المعرفة والكرم والنبيل والوقار إلا بقدر هذا التصنع [...] وإنما وضعت هذه
الألفاظ ليستعملها أهل اللغة ولو كان الرأي ألا يُلَفِظَ بها ما كان لأوّل
كونها معنى ولكان في التحريم والصّون للغة العرب أن تُرفع هذه الأسماء
والألفاظ منها. وقد أصاب كلّ الصواب من قال : " لكلّ مقام مقال " .

(كتاب مفاخر الجوّاري والغلمان - II - ص ص 92 ، 93)

* * * * *

18

[...] ليس من قال الشّعْر بقريحته وطبعه واستغنى بنفسه، كمن
احتاج إلى غيره يطردّ شعره ويحتذى مثاله ولا يبلغ معشاره.

(كتاب مفاخرة الجوّاري والغلمان - II - ص 116)

* * * * *

19

[...] فأمّا أن تذكّرَ طيب الدّنيا والتمتّع مِن لذّاتها وصِفَات محاسنها وتذكّرَ ظُرفاءها وأربابها، وتجنّبنا بأحاديث الزّهَاد والفقهاء فقد انقطع الحِجَاج بيننا وبينك. وقد قلنا في صدر كتابنا إنّ الكلام إذا وُضِعَ على المزح والهزل ثمّ أخرجته عن ذلك إلى غيره من الجدّ، تغيّر معناه وبطل.

(كتاب مفاخرة الجوّاري والغلمان - II - ص 119)

* * * * *

20

[...] وقد ذكرنا في آخر كتابنا هذا مُقطّعات من أحاديث البَطّالين والظُرفاء ليزيد القارئ لهذا الكتاب نشاطا ويذهب عنه الفُتور والكلال.

(كتاب مفاخرة الجوّاري والغلمان - II - ص 125)

* * * * *

21

[...] ولا نرى بالغِناء بأسا إذا كان أصله شعرا مكسُوءاً نَغْمًا، فما كان منه صِدَقًا فحسَن، وما كان منه كذبا فقييح. وقد قال النّبِيّ عليه السّلام : " إنّ مِن الشّعَرِ حِكْمَةٌ ". وقال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه : " الشّعَرُ كلام، فحسَنه حسن، وقبيحه قبيح ". ولا نرى وزن الشّعَرِ أزال الكلام عن جهته، فقد يُوجَد ولا يضرُّه ذلك، ولا يُزيل منزّله مِن

الحكمة. فإذا وجب أن الكلام غير مُحَرَّم فإنَّ وزنه وتقفيته لا يُوجِبَان تحريما لعلّة من العلل. وإنَّ التّرجيع له أيضا لا يخرج إلى حرام. [١٠٠] ولا أصل لذلك في كتاب الله تعالى ولا سنّة نبيّه عليه السلام.

(كتاب القيان - II - ص ص 160 ، 161)

* * * * *

22

[١٠٠] ولو كانت الكتابة شريفة والخطّ فضيلة كان أحقّ الخلق بها رسول الله صلى الله عليه وسلّم وكان أولى الناس ببلوغ الغاية فيها ساداتهم وذوو القدر والشرف فيهم. ولكنّ الله منع نبيّه صلى الله عليه وسلم ذلك، وجعل الخطّ فيه دنيّة وصدّ العلم به عن النّبوة. ثم صيّرَ الملك في مُلكه والشريف في قومه يتبجّح برداء الخطّ وينبّل بشنّج الكتاب. وإنّ بعضهم كان يقصد لتقبيح خطه وإن كان حلّوا، ويرتفع عن الكتاب بيده وإن كان ماهرا وكان ذلك عليه سهلا فيكلفه تابعه ويحتشّم من تقليده الخطير من جلسائه.

(كتاب ذم أخلاق الكتاب - II - ص ص 189 ، 190)

* * * * *

23

[١٠٠] إنَّ سنخ الكتابة بُنيَ على أنّه لا يتقلّدها إلا تابع ولا يتولاها إلا من هو في معنى الخادم. ولم نرَ عظيما قطّ تولّى كفاية نفسه أو شارك كاتبه في عمله. وكلّ كاتب فمحكوم عليه بالوفاء ومطلوب منه الصبر

على اللاواء [...] فأحكامه أحكام الأرقاء ومحله من الخدمة محل الأغبياء.

(كتاب ذم أخلاق الكتاب - II - ص ص 190 ، 191)

* * * * *

24

[...] ثم هو [الكاتب] مع ذلك في الذروة القصوى من الصلف والسنام الأعلى من البذخ وفي البحر الطامي من التيه والسرف. يتوهم الواحد منهم إذا عرّض جَبَّته وطَوَّل ذيله وعقص على خده صُدْغَه [...] أنه المتبوع ليس التابع والمليك فوق الملك. ثم الناشئ فيهم إذا وطئ مقعد الرياسة وتورّك مشورة الخلافة وحُجِزت السلّة دونه وصارت الدواة أمامه وحفظ من الكلام فتيقه ومن العلم مَلَحَه وروى لبزُر جمهر أمثاله ولأردشير عهده ولعبد الحميد رسائله ولابن المقفع أدبه وصيّر كتاب مزدك معدن عمله ودفتر كليلة ودمنة كنز حكمته ظن أنه الفاروق الأكبر في التدبير وابن عباس في العلم بالتأويل ومعاذ بن جبل في العلم بالخلال والحرام وعليّ بن أبي طالب في الجراة على القضاء والأحكام وأبو الهذيل العلاف في الجزء والطفرة وإبراهيم بن سيار النظام في المكّامات والمجانسات وحسين النجّار في العبارات والقول بالإثبات والأصمعيّ وأبو عبيدة في معرفة اللغات والعلم بالأنساب [...] ثم يظهر ظرفه بتكذيب الأخبار وتهجين من نقل الآثار [...] وإن دُكر عنده شريح جرّحه وإن نُعت له الحسن استثقله وإن وُصف له الشعبيّ استحمقه [...] هذا هو المشهور من أفعالهم والموصوف من أخلاقهم .

(كتاب ذم أخلاق الكتاب - II - ص ص 191 - 194)

25

[...] ومن الدليل على نذالة طبعهم والعلم بفسالة رأيهم، تقديمهم بالفضل لمن لا يفهمونه وقضاؤهم بالعلم لمن لا يعرفونه حتى أنهم يضربون بالكاتب فيما بينهم المثل ويحكمون له بالبصيرة في الأدب على غير معاشرة جرت بينهم ولا محبة ظهرت له منهم [...]

ولعله عمر بن فرج في السّفه والمباهة، وإبراهيم بن العباس في الشرّ والرّقاعة ونجاح بن سلمة في الطيش والسخافة، وأحمد بن الخطيب في اللّؤم والجهالة، وآل وهب في النّهم والنذالة، ويحيى بن خاقان في النذل والفاقة، وموسى بن عبد الملك في الوخّم والبلادة، وابن المدبّر في الخبّة والمكابرة، والفضل بن مروان في الفدامة مقصورة.

(كتاب ذم أخلاق الكتاب - II - ص ص 197 ، 198)

26

[...] حدّثني عمر بن سيف أنه حضر مجلس أبي عباد ثابت بن يحيى يوماً في منزله وعنده جماعة من الكتاب، فذكر ما هم عليه من ملائم الأخلاق ومدانس الأفعال [...] ثم وصف من سلف من هذه الطبقة يوماً فقال : كتب سالم | أبو العلاء | لهشام بن عبد الملك وكان أشدّ الناس غلّطا وأضعفهم رأياً وكان هشام يُحضّره فيسمع من ضعفه ويستميحه الرأي يهزأ به. ثم كتب لهم مسعدة وكان مؤدباً وكانت ضَعْفَةُ المؤدبين فيه. ثم كتب لهم عبد الحميد وكان معلّماً وبتحامله على نصّر ابن سيار

انتقضت خراسان وزال مُلك بني مروان. ثم كتب لبني العباس عبد الله بن المقفع فأغرى بهم عبد الله بن علي ففُطِنَ له وقُتل وهُدِمَ البيت على صاحبه |...| ثم لم ينوهوا بذكر كاتب حتى وَلِيَ المأمونُ فقدم معه ابن أبي العباس الطوسي، فبه انتشرت السعاية بالعراق.

(كتاب ذم أخلاق الكتاب - II - ص ص 200 - 203)

* * * * *

27

|...| ومن حديث للزُّهري عن كُثَير بن العباس |...| قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حُنين على بغلته الشهباء |...| فحَضَّهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " الآن حَمِي الوطيس " وهذه كلمة لرسول الله |...| لم يسبقه إليها أحد .

وكذلك قوله : مات حَتَفَ أَنفِه " |...| فصارت كلها أمثالا »

(كتاب البغال - II - ص ص 222 ، 223)

* * * * *

28

|...| وقالوا : « وقع بين حَيَّين من قريش منازعة فخرجت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها على بغلة فلقِيها ابن أبي عتيق فقال : " |...| " قالت : " |...| " فضحكت وانصرفت . »

هذا حفظكك الله حديث مصنوع ومن توليد الروافض فظنّ الذي
ولّد هذا الحديث أنّه إذا أضافه إلى ابن أبي عتيق وجعله نادرة ومُلحّة أنّه
سيشيع ويجري عند الناس مجرى الخبر .

(كتاب البغال - II - ص ص 223 ، 224)

* * * * *

29

[...] إنّ لكل شيء من العلم ونوع من الحكمة وصنف من الأدب سببا
يدعو إلى تأليف ما كان فيه مشتتا ومعنى يحدو على جمع ما كان منه
متفريقا. ومتى أغفلَ حَمَلَةُ الأدب وأهل المعرفة تمييز الأخبار واستنباط
الآثار وضَمَّ كل جوهر نفيس إلى شِكْلِهِ وتأليف كل نادر من الحكمة إلى
مِثْلِهِ، بطلت الحكمة وضاع العلم وأُميتَ الأدبُ ودَرسَ مستورٌ كل نادر.

ولولا تقييد العلماء خواطرهم على الدهر ونقرهم آثار الأوائل في
الصخر لبطل أول العلم وضاع آخره ولذلك قيل : " لا يزال الناس بخير
ما بقي الأول يتعلم منه الآخر .

(رسالة في الحنين إلى الأوطان II - ص 379)

* * * * *

30

[...] ولولا الكتاب لا ختلت أخبار الماضين وانقطعت آثار الغائبين وإنما
اللسان للشاهد لك والقلم للغائب عنك وللماضي قبلك والغابر بعدك.

فصار نفعه أعمّ والدواوين إليه أفقر. والملِكُ المُقيم بالواسطة لا يُدرك مصالح أطرافه وسدّ ثغوره وتقويم سكان مملكته إلا بالكتاب. ولولا الكتاب ما تمّ التدبير ولا استقامت الأمور وقد رأينا عمود صلاح الدين والدنيا إنما يعتدّل في نصابه ويقوم على أساسه بالكتاب والحساب .

(من كتابه في المعلمين III - ص ص 27، 28)

* * * * *

31

[...] وكرهت الحكماء والرؤساء أصحاب الاستنباط والتفكير جودة الحفظ لمكان الاتكال عليه وإغفال العقل من التمييز حتى قالوا : " الحفظ عَذَقُ الذهن ". ولأن مُستعمل الحِفظ لا يكون إلا مُقلِّدا والاستنباط هو الذي يُفضلي بصاحبه إلى برّء اليقين وعزّ الثقة .

والقضية الصحيحة والحكم المحمود أنّه متى أدام الحفظ أضّرّ ذلك بالاستنباط ومتى أدام الاستنباط أضّرّ ذلك بالحفظ و إن كان الحفظ أشرف منزلة منه. ومتى أهمل النظر لم تُسرّع إليه المعاني ومتى أهمل الحفظ لم تَعَلّق بقلبه وقلّ مكثّها في صدره .

(من كتابه في المعلمين III - ص ص 29، 30)

* * * * *

32

[...] وعلى أننا لا نَعْلَم أنّ لأحد من جميع أصناف المعلمين لجميع هذه الأصناف كفضيلة المُعلّم من الناس الأحداث النطق المنشور ككلام الاحتجاج

والصفات والمناقلات من المسائل والجوابات في جميع العلامات بين
الموزون من القصائد والأرجاز ومن المزدوج والأسجاع مع الكتاب
والحساب وما شاكل ذلك ووافقه واتصل به وذهب مذهبه .

(من كتابه في المعلمين - III - ص 34)

* * * * *

3 3

[...] ثم خُذْهُ بتعريف حُجَجِ الْكِتَابِ وتخلّصهم باللفظ السهل القريب
المأخذ إلى المعنى الغامض. وأذقّه حلاوة الاختصار وراحة الكفاية وحذّره
التكلف واستكراه العبارة فإنّ أكرم ذلك كلّ ما كان إفهاماً للسامع ولا
يُحَوِّجُ إلى التأويل والتعقّب ويكون مقصّوراً على معناه لا مُقَصِّراً عنه ولا
فاضلاً عليه .

(من كتابه في المعلمين - III - ص 39)

* * * * *

3 4

[...] فاختر من المعاني ما لم يكن مستورا باللفظ المُعَقَّد مُغْرِقاً في
الإكثار والتكلف. فما أكثر مَنْ لا يحفل باستهلاك المعنى مع براعة اللفظ
وغموضه على السامع بعد أن يتسّق له القول وما زال المعنى محجوباً لم
تكشف عنه العبارة. فالمعنى بعد مُقَيِّم على استخفائه وصارت العبارة لَغْواً
وظرفاً خالياً. وشرّ البلغاء من هَيَّا رسم المعنى قبل أن يَهَيِّئَ المعنى عشقاً
لذلك اللفظ وشغفاً بذلك الاسم حتى صار يجرّ إليه المعنى جرّاً ويلزقه به

إلذاقا. حتى كأن الله تعالى لم يخلق لذلك المعنى اسما غيره ومنعه
الإفصاح عنه إلّا به .

والآفة الكبرى أن يكون رديء الطبع بطيء اللفظ كليل الحدّ شديد
العجب ويكون مع ذلك حريصا على أن يُعَدَّ في البلغاء شديد الكلف
بانتحال اسم الأدباء .

(من كتابه في المعلمين III - ص ص 40.39)

* * * * *

35

[...] وبالجملة إنّ لكلّ معنى شريف أو وضع هزل أو جدّ وحزم أو
إضاعة ضربا من اللفظ هو حقّه وحظّه ونصيبه الذي لا ينبغي أن
يُجاوزَه أو يُقصرَ دونه .

(من كتابه في المعلمين III - ص 40)

* * * * *

36

[...] وخيرُ الكتب ما إذا أعدتَ النظر فيه زادك في حُسْنِه وأوقفك
على حدّه .

(من كتابه في المعلمين III - ص 42)

* * * * *

37

[...] تُعْطِي [المخاطب : ابن عبد الوهاب] المعنى حَقَّه مِنَ اللَّفْظِ كَمَا تُعْطِي اللَّفْظَ حَظَّهُ مِنَ الْمَعْنَى. وَتُحِبُّ الْمَعْنَى إِذَا كَانَ حَيًّا يَلُوحُ وَظَاهِرًا يَصِيحُ وَتُبْغِضُهُ مُسْتَهِلَكًا بِالتَّعْقِيدِ وَمُسْتَوْرًا بِالتَّغْرِيْبِ. وَتَزْعَمُ أَنَّ شَرَّ الْأَلْفَاظِ مَا غَرَّقَ الْمَعْنَى وَأَخْفَاهَا وَسَتَرَهَا وَعَمَّاهَا وَإِنْ رَأَيْتَ سَمْعَ الْغُمُرِ وَاسْتَمَالَتَ قَلْبَ الرِّبَاضِ.

أَعَجَبُ أَلْفَاظِكَ عِنْدَكَ مَا رَقَّ وَعَذَّبَ وَخَفَّ وَسَهَّلَ وَكَانَ مَوْقُوفًا عَلَى مَعْنَاهُ وَمُقْصُورًا عَلَيْهِ دُونَ مَا سِوَاهُ لَا فَاضِلَ وَلَا مُقْصَرٍ وَلَا مُشْتَرَكٍ وَلَا مُسْتَغْلِقٍ قَدْ جُمِعَ خِصَالُ الْبَلَاغَةِ وَاسْتَوْفَى خِلَالُ الْمَعْرِفَةِ. فَإِذَا كَانَ الْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ وَأُلْفِيَ عَلَى هَذِهِ الشَّرْطِ لَمْ يَكُنِ اللَّفْظُ أَسْرَعَ إِلَى السَّمْعِ مِنَ الْمَعْنَى إِلَى الْقَلْبِ وَصَارَ السَّامِعُ كَالْقَائِلِ وَالْمُتَعَلِّمُ كَالْمُعَلِّمِ.

(من كتابه في التربيعة والتدوير - III - ص 64.63)

* * * * *

38

[...] وَلَمْ نَرَ شَيْئًا أَبْعَدَ مِنْ شَيْءٍ وَلَا أَطْوَلَ لَهُ صُحْبَةً وَلَا أَشَدَّ خِلَافًا وَلَا أَكْثَرَ لَهُ خِلْطَةً مِنَ الْجِدِّ وَالْمَزَاحِ وَالْمُنَاطَرَةِ وَالْمِرَاءِ.

(من كتابه في التربيعة والتدوير - III - ص 73)

* * * * *

39

[...] إنَّ الكلام قد يكون في لفظ الجدِّ وهو مُزاح.

(من كتابه في التربيع والتدوير - III - ص 79)

* * * * *

40

[...] وأما فَوْكَ فهو الذي لا ندري أيَّ الذي تتفوَّه به أَحَسَرُ وأيَّ الذي يبدو منه أَجْمَلُ : الحديث أم الشَّعر أم الاحتجاج أم الأمر والنهي أم التَّعليم والوصف. وعلى أَتْنَا لا ندري أيَّ أَلْسِنَتِكَ أبلغ وأيَّ بَيَانِكَ أَشْفَى : أَقْلَمَكَ أبلغ أم لَفْظُكَ أم إِشَارَتِكَ أم عَقْدُكَ ؟ وأنت في ذلك فوقهم وواحدهم.

(من كتابه في التربيع والتدوير - III - ص 90)

* * * * *

41

[...] زعم بعضهم أنَّ جميع المُزاح خير من جميع الجدِّ، وزعم آخرون أنَّ الخير والشرَّ عليهما مقسومان [...] فأما الذي عدَلَّ بينهما فإِنَّه زعم أنَّ المزاح في موضعه كالجدِّ في موضعه [...] ونحن نعوذ بالله أن نجعل المزاح في الجملة كالجدِّ في الجملة بل نزعم أنَّ بعض المزاح خير من بعض الجدِّ، وعامة الجد خير من عامة الهَزْل والحَقُّ أن يُنْضَحَ عن بعض المزاح، ويُحْتَجَّ لجمهور الجدِّ.

(من كتابه في التربيع والتدوير - III - ص 93.96)

* * * * *

4 2

[...] كما نُحِبُّ أن يخرجَ هذا الكتابُ تامًّا ويكون للأشكال الداخلية فيه جامعًا وهو القول [...] بما جاء في ذلك من الكتاب الناطق والخبر الصادق والشاهد العَدْل والمَثَل السائر حتى يكون الكتاب عربيًّا أعرائيًّا [...] وحتى يُجْتَنَّب فيه العويص والطُرُق المُتَوَعَّرَة والألفاظ المستنكرة وتلزيق المتكلفين وتلفيق أصحاب الأهواء من المتكلمين [...] وانهلال القوة.

(من كتابه في النساء - III - ص ص 152 ، 153)

* * * * *

4 3

[...] فلمَّا اعتزمنا على ما ابتدأنا به وجدناه قد اشتمل على أبواب أكثر عددها وتبعد غايتها فرأينا [...] أن نقتصر منه على ما لا يبلغ بالمستمع إلى السامة وبالمألوف إلى مجاوزة القدر.

(من كتابه في النساء - III - ص 153)

* * * * *

4 4

[...] وليس ينبغي لكتب الآداب والرياضات أن يحمل أصحابها على الجدِّ الصَّرف وعلى العقل المحض وعلى الحقَّ المُرَّ وعلى المعاني

الصعبة التي تَسْتَكِدُّ النُّفُوسَ وتستفرغ الجهود. وللصَّبر غاية
وللاحتمال نهاية .

(من كتابه في النساء - III - ص 153)

* * * * *

4 5

[...] ولا بأس بأن يكون الكتاب مُوشَّحاً ببعض الهزل وعلى أن
الكتاب إذا كَثُرَ هَزَلُهُ سَخِفَ كما أَنَّهُ إذا كَثُرَ جِدُّهُ ثَقُلَ.

ولا بدّ للكتاب من أن يكون فيه بعض ما يَنْشِطُ القارئَ وينفي
النُّعَاسَ عن المستمع. فَمَنْ وَجَدَ في كتابنا هذا بعضَ ما ذكرنا فليعلمْ أن
قَصْدَنَا في ذلك إِنَّمَا كان على جِهَةِ الاستدعاء لقلبه والاستمالة لسمعه
وبَصَرِهِ.

(من كتابه في النساء - III - ص 153)

* * * * *

4 6

[...] وَوَصَفُوا المَجْدُولَةَ بالكلام المنشور فقالوا : « أعلاها قَضِيبٌ
وأسفَلُها كَثِيبٌ » .

(من كتابه في النساء - III - ص 159)

* * * * *

47

[...] فليس يعرف [الصبيّ الملقّن] فروقَ النظم واختلاف البحث والنثر
إلاّ مَنْ عَرَفَ القصيد من الرّجز والمُخَمَّس مِنَ الأسجاع والمُزدوج مِنَ
المنثور والخطَب مِنَ الرسائل وحتى يَعْرِفَ العَجْزَ العَارِضَ الذي يَجُوزُ
ارتفاعه.

(من كتابه في مقالة العثمانية - IV - ص 31)

* * * * *

48

[...] دَرَجَتِ الأرضُ مِنَ العرب والعجم على إشار الإيجاز وحمد
الاختصار وذمّ الإكثار والتّطويل والتّكرار وكلّ ما فضل عن المقدار.

(من رسالته في البلاغة والإيجاز - IV - ص 151)

* * * * *

49

[...] كان الرسول [...] طَوِيلَ الصَّمْتِ دائِمَ السَّكْتِ يَتَكَلَّمُ بجوامعِ الكَلِمِ
لا فضل ولا تقصير وكان يبغض الثّرارين المُتَشَدِّقين.

(من رسالته في البلاغة والإيجاز - IV - ص 151)

* * * * *

50

[...] كان يُقال : « أَفْصَحُ النَّاسِ أَسْهَلُهُمْ لَفْظًا وَأَحْسَنُهُمْ بَدِيعَةً وَابْلَاغَةً
إِصَابَةً الْمَعْنَى وَالْقَصْدُ إِلَى الْحُجَّةِ مَعَ الْإِيجَازِ وَمَعْرِفَةُ الْفَصْلِ مِنَ الْوَصْلِ.

(من رسالته في البلاغة والإيجاز - IV - ص 151)

* * * * *

51

[...] رُبَّمَا كَانَ الْإِيجَازُ مَحْمُودًا وَالْإِكْثَارُ مَذْمُومًا وَرَبَّمَا رَأَيْتَ الْإِكْثَارَ
أَحْمَدَ مِنَ الْإِيجَازِ وَلِكُلِّ مَذْهَبٍ وَجْهٌ عِنْدَ الْعَاقِلِ.

(من رسالته في البلاغة والإيجاز - IV - ص 152)

* * * * *

52

[...] التَّقْلِيلُ لِلتَّخْفِيفِ وَالتَّطْوِيلُ لِلتَّعْرِيفِ وَالتَّكْرَارُ لِلتَّوَكِيدِ وَالْإِكْثَارُ
لِلتَّشْدِيدِ.

(من رسالته في البلاغة والإيجاز - IV - ص 152)

* * * * *

5 3

[...] وأما المذمومُ منَ المقالِ فما دعا إلى المَلالِ وجاوزَ المَقْدارَ [...] وخرجَ منَ مجرى العادة.

(من رسالته في البلاغة والإيجاز - IV - ص 152)

* * * * *

5 4

[...] وكذلك التمسوا الرِّفقَ والتوفيقَ والإيجازَ [...] وانخفاضَ الصوتِ وأن يُخرِجَ الظالمُ كلامَه مَخرَجَ لفظِ المظلوم. نَعَمْ وحتى يتركَ اللحنَ بحُجَّتِه بَعْدُ ويُخَلِّفَ الداهيةَ كثيراً من أدبه ويغُضُّ من محاسنِ مَنطِقِه التماساً لِمُواساةِ خَصَمِه في ضَعفِ الحيلةِ والتشَبُّه به في قِلَّةِ الفِطنة.

نَعَمْ وحتى يكتُبَ كِتَابَ سِعايةٍ ومَحَلِّ [...] فَيَلْحَنَ في إعرابه ويتَسَخَّفَ في ألفاظه ويتَجَنَّبَ القَصْدَ ويهرب من اللفظِ المُعْجَبِ لِيُخَفِيَ مكانَ حِذْقِه [...] حتى لا يحترس منه الخصمُ ولا يتحفظ منه صاحبُ الحُكْمِ بَعْدَ أن لا يضرَّ بَعَيْنٍ معناه [...] وهذا هو المَوْضِعُ الذي يكون فيه العِيُّ أَبْيَنُ وذُو الغباوةِ أَفْطَنَ والرَدِيُّ أَجْوَدُ والأنوَكُ أَحْزَمُ والمُضِيعُ أَحْكَمُ إذا كان غَرَضُه الذي إِيَّاه يرمي [...] الانتفاع بالمعنى المُتَخَيَّرِ دون المُبَاهَاةِ باللفظ [...] بل رُبَّما لم يَرْضَ باللفظِ السليم حتى يُسَقِّمَه ليقع العَجْزُ مَوْقِعَ القُوَّةِ ويُعَرِّضَ العِيَّ في مَحَلِّ البلاغة إذا كان حقَّ ذلك المكان اللفظَ الدُّونَ والمعنى الغُفْلَ.

(من رسالته في المودة والخلطة - IV - ص ص 196 ، 197)

* * * * *

5 5

[...] والكتابُ هو القطب الذي عليه مدارُ عِلْمٍ ما في العالمِ وآدابِ الملوك وتلخيص الألفاظ والغوص على المعاني السداد والتخلُّص إلى إظهار ما في الضمانر بأسهل القول والتمييز بين الحجّة والشبهة وبين المفرد والمشارك وبين المقصور والمبسوط وبين ما يحتمل التأويل ممّا لا يحتمله وبين السليم والمُعْتَلّ.

(من رسالته في المودة والخلطة - IV - ص 204)

* * * * *

5 6

[...] وقالوا في تأديب الولاة وتقديم تدبير الكفاة : « إذا أبردتم البريد فاجعلوه حسن الوجه » فكيف إذا قارن حسن الوجه وحسن الاسم كرم الضريبة وشرف العرق.

(من رسالته في استنجاز الوعد - IV - ص 222)

* * * * *

5 7

[...] ولم يذكر الخطباء ولا قدّمتهم الوفود عند الخلفاء إلا لما عرفوه من فضل لسانهم وفضيلة بيّانهم وإنّ أصحّ ما يوجد في المعقول وأوضح ما يعدّ في المحصول للعرب من الفضل فصاحتها وحسن منطيقها بعد فضائلها المذكورة وأيامها المشهورة .

(من رسالته في تفضيل النطق على الصمت - IV - ص 237)

* * * * *

58

[...] وَلَفْضِ الْفَصَاحَةِ [...] أَنْزَلَ عَلَيْهِ قِرْآنَهُ عَرَبِيًّا [...] فَلَمْ يُخَصَّ
اللِّسَانُ بِالْبَيَانِ وَلَمْ يُحْمَدَ بِالْبُرْهَانِ إِلَّا عِنْدَ وَجُودِ الْفَضْلِ فِي الْكَلَامِ
وَحُسْنِ الْعِبَارَةِ عِنْدَ الْمُنَاطِقِ وَحُلَاوَةِ اللَّفْظِ عِنْدَ السَّمْعِ.

(من رسالته في تفضيل النطق على الصمت - IV - ص 237)

* * * * *

59

[...] وَقَدْ كَتَبْتُ لَكَ [...] فِي هَذَا الْكِتَابِ مَا فِيهِ الْجَزَايَةُ وَالْكِفَايَةُ وَلَوْ
بَسَطْتُ الْقَوْلَ لَوَجَدْتَهُ مُتَّسِعًا وَلَأَتَاكَ مِنْهُ الدَّهْمُ. وَرُبَّمَا كَانَ الْإِقْلَالُ فِي
إِيجَازِ أَجْدَى مِنْ إِكْثَارِ يُخَافُ عَلَيْهِ الْمَلَلُ فَخَلَطْتُ لَكَ جِدًّا بِهِزْلٍ وَقَرَنْتُ
لَكَ حُجَّةً بِمُلْحَةٍ لِيَخِفَ مَوْئِنَةُ الْكِتَابِ عَلَى الْقَارِئِ وَلِيَزِيدَ ذَلِكَ فِي نَشَاطِ
الْمُسْتَمِعِ فَجَعَلْتُ الْهَزْلَ بَعْدَ الْجِدِّ جَمَامًا وَالْمُلْحَةَ بَعْدَ الْحُجَّةِ مُسْتَرَا حًا.

(من كتابه في الشارب والمشروب - IV - ص 381)

* * * * *

60

[...] وَلَعَلِمَ أَنَّ قِرَاءَةَ الْكُتُبِ أَبْلَغُ فِي إِرْشَادِهِمْ مِنْ تَلَاqِيهِمْ إِذْ مَعَ
التَّلَاقِي يَقْوَى التَّصَنُّعُ وَيَكْثُرُ التَّظَالُمُ [...] وَعِنْدَ الْمُرَاحِمَةِ تَشْتَدُّ الْغَلْبَةُ
وَشَهْوَةُ الْمُبَاهَاةِ وَالِاسْتَحْيَاءِ مِنَ الرَّجُوعِ [...] وَعَنْ جَمِيعِ ذَلِكَ تَحْدُثُ

الضغائن [...] وإذا كانت القلوب على هذه الصفة [...] امتنعت عن المعرفة وعَمِيَتْ عن الدلالة.

وليس في الكتب عِلَّةٌ تَمْنَعُ من دَرَكِ البُغْيَةِ وإصابة الحُجَّةِ لَأَنَّ الْمُتَوَحِّدَ بقراءتها والمُتَفَرِّدَ بِفَهْمِ معانيها لا يُبَاهِي نَفْسَهُ ولا يُغَالِبُ عَقْلَهُ ولا يُعَازُ خَصْمَهُ.

(من كتابه في الجوابات واستحقاق الإمامة - IV - ص 296)

* * * * *

6 1

[...] والكتاب قد يَفْضُلُ ويرجح على واضعه بأمور منها أَنَّ الكتاب يُقْرَأُ بكلِّ مكان وفي كلِّ زمان [...] وذلك أمرٌ يستحيل في الواضع ولا يُطْمَعُ فيه من المَنَازِعِ وقد يذهب العالم وتبقى كُتُبُهُ ويفنى أثرُهُ.

(من كتابه في الجوابات واستحقاق الإمامة - IV - ص ص 296 ، 297)

* * * * *

6 2

[...] ولولا ما رَسَمَتْ لنا الأوائلُ في كُتُبِها وخلَّفت من عجيب حَكَمِها ودَوَّنَتْ من أنواع سِيَرِها حتى شاهدنا بها ما غاب عنا [...] لقد خَسَّ حَظُّنا من الحِكمة وانقطع سبيلنا إلى المعرفة ولو أُلْجِئْنَا إلى قَدْرِ قُوَّتِنَا [...] بما أدركَتْهُ حواسُّنا [...] لقد قَلَّتْ المعرفة وقَصُرَتْ الهِمَّةُ [...] فاعتَقَمَ الرَّأْيُ ومات الخاطرُ وتبلَّدَ العقلُ واستبدَّ بنا سوءُ العادة.

(من كتابه في الجوابات واستحقاق الإمامة - IV - ص 297)

* * * * *

[...] فينبغي أن يكون سبيلنا فيمن بعدنا سبيل من قبلنا فينا مع أنا قد وجدنا في العبرة أكثر مما وجدوا كما أن بعدنا يجد من العبرة أكثر مما وجدنا فما ينتظرُ الفقيهُ بفقهه والمحتجُ لدينه والذابُّ عن مذهبه ومواسي الناس في معرفته وقد أمكن القول وأطرق السامعُ [...] وهبت ريحُ العلماء.

(من كتابه في الجوابات واستحقاق الإمامة - IV - ص 298)